**المحاضرة رقم 10**

تعددت النظريات الأنثروبولوجية التي نظرت إلى مختلف جوانب حياة الإنسان، سواء أكانت ثقافية، سياسية، اجتماعية، اقتصادية، جمالية او فنية...الخ. ولكل منها رؤيتها وموقفها ومنهجها وتفسيرىا لهذه الجوانب والمجالات، هذا من جهة، أما من جهة الأخرى فإن هذه النظريات تدل على حيوية وفاعلية البحث الأنثروبولوجي، وعلى انه بحث متواصل ومستمر يتكيف مع التغيرات ويبدع حولها تنظيرات ومفاهيم ومناهج من خلال التاريخ المؤسس للأنثروبولوجيا، انطلقت جهود التنظير العلمي في بناء نظريات شاملة لمعطيات امبريقية وفكرية ومنهجية تفسيرية، بحيث تفّرقت وتعّددت في اتجاهات ونظريات أهمها التطورية، الانتشارية، البنائية الوظيفية والنفسية.

1. **النظرية التطورية الاجتماعية:**

نبدأ بالطرح **الدارويني** الذي يشير إلى أن الاستمرار وبقاء المخلوقات في ظل التغيرات والتحولات البيئية، يتطلب حتمية التكيف مع الظروف الجديدة، من خلال صفات وقدرات تسمح لها بتحقيق الموائمة البيئية الضرورية للاستمرار والبقاء ومقاومة التغيرات الخارجية. وبذلك فإن الأكثر قدرة واستعدادا هم الذين يصمدون وغير معرضون للزوال، فالتطور هو التغير للتكيف الأحسن مع المحيط[[1]](#footnote-1).

وهذا ما يفسر خضوع الكائنات العضوية إلى مبادئ التطور والتكيف والصراع من أجل البقاء. ويستند **تشارلز داروين *Charles Darwin*** إلى مجموعة عوامل مؤثرة في عملية التطور الاجتماعي، أهمها: التحول، التوالد، التنازع على البقاء والبقاء للأقوى. حيث طبقت هذه المبادئ في تفسير نشأة وظهور النظم الاجتماعية، أين حاول علماء الاجتماع والأنثروبولوجيون تطبيقها على الإنسان العاقل لمعرفة مراحله التطورية.

وبصورة عامة تم تدعيم هذه الأفكار ضمن الأبحاث العلمية التي أوضحت أن الحياة قد نشأت من البسيط إلى المعقد، فهي لم تنشأ دفعة واحدة، والإنسان قد نشأ في سيرورة هذا التطور العضوي عبر البعد الزمني، خاصة فيما يتعلق بصفاته إلىيكلية والمظهرية (الشكلية) [[2]](#footnote-2)..

لقد تأثر أنصار الاتجاه التطوري بالتطور الأحيائي في الجوانب الثقافية والمادية والروحية، بحيث ربطوا بين عناصر الثقافة وبين مؤسساتها بشكل كلي، لكون الثقافة تشكل كيانا متكامل الأجزاء. لذلك من الضروري حسبهم المقارنة بين الثقافات البشرية عن طريق نظم تطورها أو مقارنة مؤسساتها ببعضها البعض، لأن البشرية لا تسير في وتيرة واحدة خلال عملية التطور الثقافي، وإنما في اتجاه متباين. لذلك فإن التنوع الثقافي بين الشعوب هو تطوري، الأمر الذي يلزم الشعوب الأقل تطورا في المستوى الثقافي، أن تلحق في فترة غير بعيدة زمنيا بالشعوب المتقدمة، لأن التقدم نحو الأفضل هو الغاية الأساسية من التطور العضوي والثقافي عند الأنسان.

ويتمسك التطوريون الثقافيون الاجتماعيون بفكره أن البشر جميعا متساوون في وحدة التفكير والسلوك رغم اختلاف انتماءاتهم السلالية والثقافية. فكل الثقافات الإنسانية محكوم عليها بالتطور، وأن الفروقات البشرية هي نتاجا للأوساط الطبيعية والجغرافية[[3]](#footnote-3).

لذلك، فإن فكرة التطور الحضاري ا خطيا عموديا تصاعديا لما أنجزه الإنسان عبر مراحل حضارية مميزة بخصائصها، فالإنسان واحد في تركيبته وتكوينه النفسي والبيولوجي منذ أن وجد وتطور كمجموعات بشرية أولى متماثلة ومتطابقة. والاختلافات في القدرات والذكاء هي مرتبطة باختلاف المعطيات الوراثية وأصل السلالات، وبالتالي لا مجال للقول بالحتمية التاريخية، مادامت هناك إمكانية حدوث الوضعية الحضارية في أي فترة زمنية.

* 1. **لويس هنري مورغان Lewis Henry Morgan** (**1818**-**1881**م)

أنثروبولوجي ومحامي، بدأت دراسته على سكان الشمال الشرقي الأمريكي (الإيروكيز)، حيث لاحظ فيها بعد العديد من الزيارات، انتشار النظام الأمومي القرابي، الأمر الذي جعله يستفسر من بين المبشرين عن أشكال الأنظمة القرابية في المجتمعات التي يقومون في النشر فيها، فتمكن من المقارنة بين **250** نظاما قرابيا في العالم.

ومن أهم إسهاماته خاصة من خلال زياراته الميدانية، أنه اكتشف تناقضا في العلاقات القرابية وواقعها الفعلي لدى الإيروكيز، إذ أن أبناء العم والعمة في هذا المجتمع، يطلق عليهم أشقاء وشقيقات. أما أبناء الخال والخالة، فيسّ مون أبناء العم. الأمر الذي جعله يقوم بتحقيقات يراجع فيها نظام القرابة ومصطلحاته، كما سبق في **960**مجتمعا في العالم. وتوصل إلى أن أغلب الأنماط القرابية السائدة في المجتمعات الأخرى كانت موجودة ومنتشرة في مرحلة سابقة للوجود البشري ثم انقرضت. وبناء على ذلك ، أعاد بناء تطور النظام القرابي على أربعة مراحل.

اتسمت المرحلة الأولى بعدم وجود نظام للمحرمات، فالإخوة والأخوات والأبناء والأولاد كانوا أزواجا وزوجات، بمعنى سيادة الاختلاط الجنسي في شكل قطيع بدائي. وكانت المرحلة الثانية هي بداية تحريم الزواج من الفروع والأصول مع استمراريته من الإخوة والأخوات، بحيث يتماثلون كأزواج وزوجات. لكنه تم منع هذا الزواج المختلط للإخوة والاخوات في المرحلة الثالثة، لكن من نسل الأم فقط ليمتد بعد ذلك للإخوة والأخوات من جميع الحواشي، وبذلك يصبح الرجال أزواجا لنساء لسن أخوات والنساء زوجات لرجال ليسوا إخوة، مع بقاء النسل من جهة الأم، وهو النمط المنتشر في مجتمع الإيروكيز. وتأتي المرحلة الرابعة، أين تحول النسب من الأم إلى الأب، نتيجة ظهور نظام تربية المواشي والزراعة وتحول الملكية إلى الرجل، فانتقل المجتمع من النظام الأمومي إلى النظام الأبوي. ومع تطور هذا النظام، برز النظام الزواجي الحديث[[4]](#footnote-4).

وعموما، فإّن ما يمّيز **لويس هنري مورغان،** أّنه معاينا مباشرا لعادات السكان المحليين، بما ساعده ذلك على تأكيد فكرة الأصل المشترك، خاصة فيما يتعلق بالبراهين التي جمعها واستخلصها من مصطلحات القرابة، والتي رتّبها إلى مجموعتين: أنساق القرابة غير الأحيائية ، بمعنى معرفة اجتماعية، وأنساق قرابة وصفية.

وحسبه، فإن تاريخ البشرية قد مّر بثلاثة مراحل متتالية هي إلىمجية، البربرية والحضارة، وذلك من خلال أو بفعل التغيرات التقنية والاقتصادية والتحولات المؤسساتية. لكن أفكاره هذه لاقت العديد من الانتقادات أهمها اعتماده على التخمين دون حجج أكيدة. فضلا عن مبالغته في وصف وتصنيف الشعوب[[5]](#footnote-5).

أما إسهاماته فيما يتعلق بتطور المجتمعات الإنسانية، فقد أدرجها في ثلاثة مراحل، حيث تمثل كل مرحلة نمطا ثقافيا تقاس على أساسه أشكال العلاقات والنظم السائدة، وحسب اعتقاده، فإن كل المجتمعات تمر بنفس السيرورة المرحلية التي رسمها لتطور المجتمعات البشرية. فضلا عن أن كل مرحلة تحوي بداخلها مراحلها الفرعية الخاصة بها

ويرى **لويس هنري مورغان** أن بداية هذا التطور تكون مع مرحلة التوحش أو الهمجية، والتي يصنفها إلى مرحلة توحش دنيا-وسطى-عليا. حيث تمثل مرحلة التوحش الدنيا الطفولة الإنسانية الشبيهة بالحياة الحيوانية، أين كان الطفل يتغذى على النباتات والثمار التي يلتقطها ويجمعها، وهي غير متواجدة حاليا. ثم تأتي مرحلة التوحش الوسطى، وهي أكثر تقدما من الأولى، أين بدأ يكتشف هذا الكائن الحي الطبيعة واستغلالها لتلبية حاجاته البيولوجية من أجل المحافظة على بقاءه، مثل اكتشاف النار واستعمالها لطهي الطعام وإنارة كهوفهم. ثم تطور أكثر في مرحلة التوحش العليا، والتي اكتشف فيها كيفية الاعتماد على نفسه وتحقيق تكيفه مع البيئة المحيطة به، فأصبح يصطاد طعامه بنفسه، وانتقل من جامع للطعام إلى منتج لغذائه.

ومن مرحلة التوحش إلى مرحلة البربرية التي انتقل فيها الإنسان إلى إبداعات جديدة في الإنتاج والتصنيع، وبالتالي الخروج من عزلته وتشكيل الجماعات الاجتماعية. وهي بدورها تنقسم إلى مرحلة بربرية دنيا، وسطى، عليا. ففي المرحلة البربرية الدنيا بدأ بصناعة الفخار وطّور إبداعاته للتكيف وتحقيق أكبر تفاعلات جماعية ممكنة. ثم انتقل إلى المرحلة البربرية الوسطى التي تخصص فيها بصناعة الآلات والأدوات المعدنية وبداية الكتابة الصورية، والتي تحولت فيما بعد في المرحلة البربرية العليا إلى كتابة حرفية تسجل فيها مختلف الصيغ الكلامية الإبداعية لهذا الإنسان.

ومن التوحش والبربرية إلى المرحلة المدنية، أين تم اختراع الحروف والكتابة والفن والصناعة. وتتواجد هذه المرحلة لحد الآن، والممثلة خاصة في أوروبا. وبهذا تكون هذه المرحلة هي آخر مراحل الانسان حسب لويس هنري مورغان[[6]](#footnote-6).

* 1. **إدوارد بلانت تايلور Edward Burnett Taylor(1832-1917م**)

ذكره علماء النفس والمؤرخين والفلاسفة وعلماء الحياة وكل المهتمين بالسلوك والفكر البدائي، بما عزز أهميته في الحقل الأنثروبولوجي. لقد ركز **تايلور** على الطريقة المقارنة بين بيئات مختلفة بفعل العوامل التطورية. كان شغوفا لدراسة الثقافة في قلب المدن الكبرى، فضلا عن شهرته بالجرأة والتميز مقارنة مع من سبقوه في الحقل الأنثروبولوجي، بحيث ساعده شغفه وميوله العلمي والمعرفي على الخوض في العديد من المسائل غير المتناولة من طرف علماء الأناسة.

تعتبر أعماله ومجهوداته المتميزة والموهوبة، بمثابة ثورة في حقل العلوم الاجتماعية بصفة عامة، والأنثروبولوجيا بصفة خاصة. حيث مهدت مجهوداته وثراءه المعرفي في التأسيس العلمي لعلم الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا، كما يرجع الفضل أيضا في هذا التأسيس العلمي للعديد من الرحالة والباحثين.

تناول **تايلور** بالتفصيل تطور المعتقدات الدينية، حيث توصل في دراساته وأبحاثه إلى أن الإنسان الأسترالي يؤمن بوجود الجسد والروح، وعند الموت تبقى الروح حية. وبالتالي، فالإنسان لجأ إلى معرفة الروح من خلال بحثه وتساؤله عن الفرق بين حالة الإنسان وهو نائم وبين حالته وهو مستيقظا، وما هو الفرق بين الموت والحياة؟، وما هي الأسباب التي تكمن في الأحلام؟ وما الفرق بين حالتي الإنسان في الحزن أو الفرح؟. فمثل هذه التساؤلات أدت إلى الاعتقاد بوجود روح وجسد للإنسان، وتعدى الأمر إلى الإيمان بالأرواح لدى جميع الكائنات الحية وغير الحية[[7]](#footnote-7).

وينقسم الإيمان بالأرواح في رأي **تايلور** إلى مرحلتين أساسيتين هما: مرحلة الإيمان بالأرواح الدنيا، والتي تعني باستمرار الروح بعد الموت، فهي ترتبط بطبيعة الأعمال التي قام بها قبل مماته. ومرحلة الإيمان بالأرواح العليا، أين يعتقد الإنسان بأن روحه هي المسؤولة عن أعماله في حياته بعد الموت. وهذا ما يفسر ما مرت به مرحلة التطور الثقافي الروحي، بحيث ميزها **تايلور** حسب المعتقدات الدينية إلى ثلاث فترات مرحلية، تبدأ بالإيمان بالأرواح وقدسيتها، ثم الإيمان بتعدد الآلهة ( لكل قبيلة إلى خاص بها،) وبعدها مرحلة الإيمان بإلى واحد قادر على كل شيء[[8]](#footnote-8).

ومن خلال مؤلفه "الثقافة البدائية"، فقد عّرف الثقافة ككل معقد بضم المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وطرائق عيش الإنسان في المجتمع[[9]](#footnote-9).

فالثقافة هي عنصر أساسي في فهم تاريخ الإنسان كظاهرة تاريخية تمّيزه عن غيرى ويتعلمها من مجتمعه، فهي انعكاسا لتطوره داخل المجتمع ضمن عاداته وتقاليده. وبهذا يكون **تايلور** من الأوائل الذين أدخلوا مفهوم الثقافة بمعناها الواسع للأنثروبولوجيا، متجاوزا بذلك المعنى الضيق الذي يقصي كل شرائح المجتمع، فالثقافة حسبه هي دائما ثقافة جماعة- مجتمع.

وعلى ضوء هذا التحليل الثقافي، توصل **تايلور** إلى نمو الثقافة التي أخذت في الانتشار من خلال الأدوات المنتشرة في المجتمعات القديمة. بمعنى أن ما نتعلمه من جيراننا على حد تعبيره، أكبر مما تخترعه بأنفسنا وبأيدينا. فالفخار مصدره المكسيك، لكنه انتشر في أمريكا، القوس والسهم والشطرنج مصدرهم الهند ثم انتشروا في أمريكا والمكسيك. لكن ما يلاحظ على هذه التحليلات، أنها متناقضة مع انتماءاته، فرأيه أقرب إلى النزعة الانتشارية. (وهو كغيرى من التطوريين، درس نظام القرابة والكوفادة). حيث بحث فيما يسميه بنظام الزواج الاغترابي المحلي ونظام الزواج من نسب الأم (ابن الخال والخالة).

وبالرغم من تبنيه النزعة التطورية في الانتقال من البسيط إلى المعقد ومن الاتجاه السفلي إلى الاتجاه العلوي، ومن اللامعقول إلى المعقول، إلا أنه يعترف بوجود ستاتيكا نسبية في هذا التطور تمنع حدوث التغيرات المطلوبة، خاصة ما اكتشفه في النظام الأمومي والأبوي. فبالرغم من أن النظام الأمومي أقدم من الأبوي، لكن يوجد بينهما نظام وسيط يختلط فيه النظامين، وهو نظام الكوفادة الذي يعكس بقايا النظام القديم في مضامين النظام الجديد السائد.

ومما يلاحظ على مساهمات **تايلور** في مجالات علم الإنسان، انه لم يذكر آليات تطور النظم الاجتماعية أو كيفيات هذا التحول التاريخي. كما أنه لم يتقيد بالنزعة العلمية الموضوعية في دراسة المعتقدات الدينية.

* 1. **جيمس جورج فرايزر James George Frazer (1854-1941**)

أخذ لقب سير **SIR** يعتبره البعض خاتمة العلماء الأنثروبولوجيين الكلاسيكيين الذين اشتهروا بكتاباتهم في فلكلور الشعوب والدين المقارن، فقد مثل أحد أهم الحقبات التاريخية التي تطورت فيها الدراسات الأنثروبولوجية. عيّن سنة **1907**م أستاذا للأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة ليفربول(**Liverpool**)، لكنه بعد فصل دراسي واحد عاد إلى كيمبردج التي ارتبط اسمه بها حتى وفاته[[10]](#footnote-10).

اتسم تفكيره بالاتساع والشمول ضمن تكوين علمي موسوعي شمل علوم الطبيعة والأحياء، اللغات الكلاسيكية والقديمة مثل اليونانية واللاتينية، كما درس التاريخ والفن والآداب.

خلف **جيمس فرايزر** إنتاجا علميا ضخما، أين تأسست شهرته في مؤلفه الكلاسيكي الشهير"الغصن الذهني" **1890**م والذي تضمن دراسة في السحر والدين، حيث عرض فيه نظرية التطور لأساليب التفكير التأليفي والفكر السحري بالمقابل مع الفكر العلمي التحليلي[[11]](#footnote-11).

لقد تركزت نظريته في السحر وفي تطور المجتمعات عبر السحر والدين والعلم، مستدلا بضعف الإنسان وقصوره في السيطرة على الطبيعة في بداية الأمر، وبعدها اعتمد الانسان على الآلهة ليتمكن من السيطرة على الطبيعة، وهنا فقد سّبق العقل الديني على العقل السحري، مما كّلفه ذلك العديد من الانتقادات. فالسحر في رأيه هو علم مسبق يشبه العلم المزيف.

وفي هذا السياق، فإن ابن خلدون قد سبقه في القول بأن السحر هو علم وفن، لما يحتويه من تقدمات وطرائق تتطلب قدرات ومهارات[[12]](#footnote-12).

وبالرغم من الجدل الكبير حول هذه المقارنة بين الدين والسحر وفي تفسير الفروقات من طرف العديد من العلماء، إلا أن أبحاث **جيمس فرايزر** كانت بمثابة موسوعة علمية جعلته من أهم رواد الفكر الأنثروبولوجي، فقد تعددت مجالاته البحثية في مختلف المجالات الإنسانية والمعرفية ذات الصلة الوثيقة بالبحث الميداني، وتبقى قيمته المعرفية في تطوير البحث الميداني متجسدة، بفضل كثرة وتعدد رحلاته وأسفاره إلى مختلف أنحاء العالم[[13]](#footnote-13)**.**

وبفضل هذا الانبعاث العلمي نحو التطور، يكون للتطورية الفضل في تصحيح المفهوم الخاطئ الذي كان سائدا لدى الإثنولوجيين خاصة بين السلالة والحضارة. وتبعا للتحليل التطوري للحضارة، فلا يمكن عزل التطور التكنولوجي عن التطور الاجتماعي، حيث سجل تاريخ المجتمعات تطورا تكنولوجيا ملموسا في الأنظمة المجتمعية، وفي المقابل، سجل أيضا قصورا وعوائق في التطور التكنولوجي لأنظمة مجتمعية الأخرى، بما يؤثر ذلك على النمو الحضاري.

لذلك، فإن علاقة التأثير المتبادلة بين تطوير التكنولوجيا وتطور المجتمع هي علاقة ثابتة، ولكنها غير متساوية من حيث درجة التأثير، لأن التطور هو حقيقة تاريخية حضارية تشمل جميع الأمم والشعوب والحضارات[[14]](#footnote-14).

لكن هذه المغالاة لرواد هذا الاتجاه في فهم الحضارات القديمة والحديثة، والبحث في تكويناتها وتطورها، جعل منه عاملا شموليا وإقصائيا للعوامل الأخرى التي تؤكدها الحقائق التاريخية**.**

1. - Robert Deliège: Histoire de l’anthropologie, (Ecoles, Auteurs, Théorie), éditions du seuil, Paris-France, 2006, p 16. [↑](#footnote-ref-1)
2. - علي عبد الله الجباوي، **علم خصائص الشعوب-علم الأقوام**-، التلوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق-سوريا، 2007، ص 325. [↑](#footnote-ref-2)
3. - علي عبد الله الجباوي، **علم خصائص الشعوب-علم الأقوام**-، مرجع سابق، ص 328. [↑](#footnote-ref-3)
4. - خواجة عبد العزيز بن محمد، **الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية-محاضرات موجهة لطلبة العلوم الإنسانية والاجتماعية**، جامعة غرداية- الجزائر، 2014-2015، ص 40، 41. [↑](#footnote-ref-4)
5. - روبرت لوي، **تاريخ الإثنولوجيا من البدايات حتى الحرب العالمية الثانية**، ترجمة نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 1992.، ص 49. [↑](#footnote-ref-5)
6. - خواجة عبد العزيز بن محمد، **مرجع سابق**، ص 42، 43. [↑](#footnote-ref-6)
7. - علي عبد الله الجباوي، **علم خصائص الشعوب-علم الأقوام-**، مرجع سابق، ص 337.. [↑](#footnote-ref-7)
8. - علي عبد الله الجباوي، **علم خصائص الشعوب-علم الأقوام-**، مرجع سابق، ص 337.. [↑](#footnote-ref-8)
9. - Gerald Gaillard: Dictionnaire des éthnologues et d’anthropologues, ed Armand, ParisFrance, 1997, p 32. [↑](#footnote-ref-9)
10. - محمود أبو زيد، **أعلام الفكر الاجتماعي والأنثروبولوجي المعاصر**، ج1 ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، د.س، ص 280. [↑](#footnote-ref-10)
11. - Jaques Dumont et Jean- Baptiste Beranian, 1972, p 261. [↑](#footnote-ref-11)
12. - جاك لومبار، **مدخل إلى الأنثروبولوجيا**، ترجمة حسين قبيسي، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، 1997، ص 80، 81. [↑](#footnote-ref-12)
13. - تيلوين مصطفى، **مدخل عام في الأنثروبولوجيا**، دار الفارابي – منشورات الاختلاف، ط1 ، بيروت – الجزائر، 2011، ص 84. [↑](#footnote-ref-13)
14. - محمد رياض، **الإنسان-دراسة في النوع والحضارة-**، ط2، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، 1974، ص 269. [↑](#footnote-ref-14)